البيئة التاريخية والاجتماعية والطبيعية لابن الابار

طلع فجر القرن السابع الهجرى ولم يكتمل عمر ابن الابار ست سنوات . فقد ولد[1] محمد بن عبد الله بن ابى بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد ابن أبى بكر القضاعى فى ربيع الثانى سنة 595 هـ. (الموافق فبراير سنة 1199 م .) وهو الذى صار يكنى فيما بعد أبا عبد الله .

كانت ولادته فى مدينة بلنسية، وكذلك كانت نشأته وحياته الاولى، وعمله وتوظفه بعد اتمام مرحلة التعليم. ولكن ابن الابار لم يعش جميع حياته فى بلنسية، أو فى وطنه الاكبر

---

(1) انظر صفحة 226 من الجزء الثانى من « فوات الوفيات » لمحمد بن شاكر الكتبى، وكذلك مقالا تحت اسم *Ibn al-Abbár* فى دائرة المعارف الاسلامية، بقلم محمد ابن ابى شنب، ومقالا قصيرا فى دائرة المعارف الاسبانية تحت اسمه : *Abu Abdallah Mohamed Ben Alabbar*

ـالاندلس- بل عاش اثنتين وعشرين سنة، وهى الشق الثانى من حياته فى تونس الحاضرة . ومات .. او قتل على الاصح - فى يوم الثلاثاء العشرين من المحرم سنة 658 هـ. (الموافق السادس من يناير سنة 1260 م.)

وهو قد غادر بلنسية لاطمعا فى موطن رخيي جديد ، ولا بحثاً عن عيش هنى سعيد، ولكنه غادرها هربا وخلاصا بنفسه وأهله من مواجهة الكارثة والموت ، غادرها وقد سقطت فى أيدى النصارى فى شهر صفر سنة 636 هـ. (الموافق سبتمبر .. اكتوبر سنة 1238 م.) وأبحر باسرته الى تونس [1] اذ كان يعتقد ان الاندلس لن تصبح مكانا آمنا له أو لغيره من المسلمين .

وكان اجداده الاولون قد هبطوا واستقروا - فى بدء الفتح - فى (أندة)وهى مدينة فى كورة بلنسية، وانتقل ابوه

---

(1) هذه هى رواية ابن خلدون فى صفحة 285 من الجزء السادس من كتابه: العبر، وديوان المبتدأ والخبر .. ولكن احمد الغبرينى يقول : انه ذهب اولا الى بجاية حيث قام بالتدريس فيها زمنا قبل ذهابه الى تونس (انظر عنوان : الدراية فى من عرف من علماء المائة السابعة فى بجاية)

وبعض ذراريهم بعد ذلك باجيال الى مدينة بلنسية . فبلنسية اذاً مهبط رأسه ومكان تنشئته وتعلمه، ومقر عشيرته وأصدقائه وأساتذته وزملائه ، والبلد الذى نشب فيه طلائع مؤلفاته ، والبيئة التى اثرت فيه بماضيها وحاضرها، وجعلت منه تلك الشخصية التاريخية التى ندرسها .

ويحدثنا المؤرخون [1] عن بلنسية بأنها كانت مدينة قديمة اسسها الرومان سنة 138 واخذها منهم القوطيون *Visigoths* فى سنة 413 م، وان المسلمين دخلوها فى سنة 96 هـ . (سنة 714م.) عندما وطد طارق بن زياد سلطانه فى المدائن والاقاليم [2] المجاورة لها، مثل دانية .

وفى كورة بلنسية نزل بنو قيس وغيرهم واستقرت اقامتهم وأنشئوا فى المدينة المساجد ومجالس العلم، فنمت حتى صارت

---

(1) انظر دائرة المعارف الاسلامية بالفرنسية تحت اسم *Valence*.

(2) فى صفحة 27، الجزء الثانى من معجم البلدان ان اهل الاندلس خاصة يسمون كل قرية كبيرة جامعة اقليما. وربما لا يعرف هذا الاصطلاح الا خواصهم . وهذا قريب مما حكاه حمزة الاصفهانى من أن الاندلسي اذا قال : أنا من اقليم كذا ، فانما يعنى بلدة او رستاقا بعينه .

شهيرة بعلمائها وقضاتها وثقافتها الاسلامية فى عهد خلافة بنى أمية.

وكان يسكن الجبال المحيطة ببلنسية قبائل من اصول بربرية انتشرت هنا وهناك. وكان خليفة قرطبة يعين من قبله واليا على بلنسية. فظلت هكذا احدى ولايات الاندلس التابعة لقرطبة الى ان سقطت الخلافة فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وبذلك صارت هدفا لاطماع الولاة المتنافسين، وملوك الطوائف، وغزو النصارى، وغيرهم من قواد جيوش المسلمين الوافدين على الاندلس من العدوة مما سنذكره بعد.

وكانت بلنسية على مسافة ثلاثة اميال [1] من البحر، فى ارض سهلة مستوية، كما كانت، فى اوائل عهد المسلمين، مدينة عامرة، كثيرة التجارات الجارية بينها وبين مدن المغرب وافريقيا والروم وجزر البحر المتوسط، ومدن الاندلس الداخلية، وبها اسواق وحط واقلاع [2] وموقعها على نهر الوادى الابيض،

---

(1) الميل العربى عند القدماء من أهل الهيئة: ثلاثة آلاف ذراع وعند المحدثين اربعة آلاف. (2) انظر صفحة 47 ـ 48 من كتاب: صفة جزيرة الاندلس منتخبة من كتاب: الروض المعطار فى خبر الاقطار لابى عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميرى، ونشر ليفى برو فنصال.

وهو نهر جار ينتفع به فى سقى الحقول ولها عليه جنات وعمارات متصلة.

وكانت السفن تدخل النهر اليها من البحر الشامى المتوسط بالمسافرين والتجارة. وكان لها سور مبنى من الحجر والطوب ولها أربعة أبواب كبيرة عليها قلاع تحرسها الجند.

وفى نفح الطيب، قال ابن سعيد [1] ان كورة بلنسية من شرق الاندلس ينبت بها الزعفران، وتعرف بمدينة التراب [2] وبها كمثرى تسمى الارزة [3] فى قدر حبة العنب! قد جمعت من حلاوة الطعم وذكاء الرائحة ما اذا دخل داراً عرف بريحته وبها منارة ومسارح (منتزهات خارج المدينة). ومن ابدعها وأشهرها الرصافة [4] ومنية [5] ابن بى عامر. ومما قاله فيها ابن الزقاق [6] البلنسى:

بلنسية ـ اذا فكرت فيها ❀ وفى آياتها ـ أسنى البلاد

---

(1) صفحة 48 من الجزء الاول طبعة بولاق. (2) لخصب تربتها، ووفرة خضرتها. (3) لان شكل الواحدة يشبه شكل حبة الارز. (4) بقرطبة رصافة ايضا وهى مدينة أنشأها عبد الرحمن الداخل تشبيها برصافة الشام التى بناها جده هشام بن عبد الملك، قال ابو سعيد «ورصافة بلنسية مناظر وبساتين ومياه جارية» (انظر نفح الطيب) (5) هى حدائق وبساتين زرعها عبد العزيز بن ابي عامر ملك بلنسية وحفيد المنصور الشهير. (6) هو ابو الحسن علي بن عطية توفى سنة 530 هجرية.

وأعظم شاهدى منها عليها ❀ وأن جمالها للعين بادى
كساها ربها ديباج حسن ❀ لها علمان من بحر ووادى

ويروى أن مروان بن عبد الله بن عبد العزيز ملك بلنسية أنشد حينما كان مطرودا منها بمراكش:

كأن بلنيسة كاعب ❀ وملبسها سندس أخضر
اذا جئتها سترت نفسها ❀ بأكمامها فهى لاتنظر[1]

ويصفها ابن سعيد بأنها مكان للهو والنزهة لرقة هوائها وخضرة[2] ارضها، ويقول: انها كانت تسمى «مدينة الطرب» وكذلك كانت رصافتها مشهورة بمناظرها الجميلة، وبساتينها ومياهها. وفيها قال الرصافى[3] الشاعر:

---

(1) سنشير الى الدور الذى قام به مروان بن عبد الله بن عبد العزيز هذا، فيما بعد (2). يذكر البتانوني فى رحلته عناية العرب بالرى فى منطقة بلنسية فيقول: فقد شقوا أنهارها وحفروا ترعها، واجروا خلجانها، وسيروا اليها الماء من جبال نيفادا التى هى مقر الثلوج المستديمة. وبنوا على الترع قناطر كثيرة لحجز المياه، ووصلوها الى المنطقة العالية حتى اصبحت هذه المنطقة جنة من الجنان. وكانت دورة الزراعة فيها ثلاثية فى السنة. (3) هو ابو عبد الله محمد بن غالب الرفاء الاندلسى البلنسى الرصافى توفى سنة 572 بمدينة مالقة.

ولا كالرصافة من منزل ❀ سقته السحائب صوب الولى

أحن اليها ومن لى بها ❀ وأين السري من الموصلى

تلك كانت مدينة بلنسية، واولئك كانت أرباضها التى كان يصح أن يعيش فيها ابن الأبار لو تقدم به الزمن . ولكنها لم تكن كذلك فى عهده . لم تكن مدينة هادئة مطمئنة، محتفظة بجبالها ، عامرة باسواقها ومعاهد علمها، رخية اسعارهـا . انها قاست، نحوا من قرنين، من عواصف الاغارات والحروب أهوالا. وسفكت بها وفى خارجها دماء طاهرة، واستشهد من أجلها مجاهدون وعلماء. وصارت ميدان حرب وكرب. ولم يعداهلها آمنين، وأثقلت كواهلهم الضرائب وانواع الخراج. ولم يستقر بها وال ردحا من الزمن الا هاجمه وال آخر يحل محله وينتقم من أهلها.

نعم صارت كذلك منذ سقوط الخلافة بقرطبة، وانقراض عقد الولاة المسلمين، وتنافسهم حتى صارت فى العهد الذى عاش فيه ابن الابار، بل قبله بسنين، كما قال ابو[1] عبد الله بن عياش :

(1) صفحة 55 من كتاب الروض المعطار (صفة جزيرة الاندلس) المشار اليه فى الصفحات السابقة، واما عبد الله بن عياش فهو شاعر اديب من شعراء الاندلس عاش فى القرن السادس الهجرى .

بلنسية ! بينى عن القلب ساوة ❀ فانك روض لا أحن لزهرك
وكيف يحب المرء داراً تقسمت ❀ على صارمى جوع وفتنة مشرك
وقد قال ذلك حين صارت ثغراً يصابحها العدو ويماسيها.

وكأنما أبو الحسن [1] بن حريق أراد أن يحارب ابن عياش، ويصحح الفكرة التى يكونها قارىء بيتيه عن بلنسية حين قال :

بلنسية ! قرارة كل حسن ❀ حديث صح فى شرق وغرب
فان قالوا: محل غلاء سعر ❀ ومسقط ديمتى طعن وحرب
فقل هى جنة حفت رباها ❀ بمكروهين من جوع وحرب

الى هذا صارت بلنسية التى عاش فيها ابن الابار، وهكذا تغيرت حالها كما يقول ابن خلصة [2] البلنسى :

وروضة زرتها بالامس مبتغيا ❀ فأوحشتنى لذكرى سادة هلكوا

(1) هو ابو الحسن علي بن حريق من ادباء الاندلس وشعرائها المقلين وقد توفى فى سنة 622 هـ (1225 م). وكان من اساتذة ابن الأبار، وسنشير اليه بعد.

(2) فهو ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن خلصة اللخمى من أهل بلنسية . وكان بها يدرس العربية والاداب، وأقرأ وقتا بدانية . ثم انتقل الى المرية. وهناك توفى سنة 516 هـ. وكان اديبا شاعرا (انظر ترجمته ومختارات من شعره فى كتاب «مخطوط» تحفة القادم).

تغيرت بعدهم خربا وحق لها ❀ مكان نوارها ان ينبت الحسك

او انها نطقت قالت لفقد هموا: ❀ بان الخليط ولم يرثوا لمن تركوا

نعم عفت معالم بلنسية ، وزوى جمالها وجلالها، وعراها الاهمال ، وصارت بساتينها ومياهها مباءة الباعوض والذباب ، حتى قال الشاعر فيها :

ضاقت بلنسية بى ❀ وذاد عن عينى غموضى

رقص البراغيث بها ❀ على غناء البعوض (1)

تلك كانت حال بلنسية فى أواخر أيامها . ويظهر أن عظمتها المادية تأثرت بحوادثها الدامية المحزنة أكثر من تاثر عظمتها العلمية . فلقد ظلت الى آخر يوم من حياتها الاسلامية موطنا للعلم والعلماء الذين زالوا عنها بزوالها ، والذين كانوا يهاجرون منها وقت المحنة والفتنة ، ويعودون عند زوالها .

وكانى أسمع القارىء يتساءل : وما هي تلك الحوادث التى مرت بها ؟ وكيف آلت حالها الى التدهور ، فالسقوط ، فالزوال

---

(1) قائل هذين البيتين غير معروف، وقد وردا فى نفح الطيب دون اسناد الى شاعر بعينه ، وانما بعبارة « وقال بعضهم فيها » .

من أيد المسلمين ؟

وتاريخ هذه الحوادث جدير بالذكر لانه قوي الصلة بحياة المدينة ، وحياة المترجم له ، ابن الابار .

لم تكن بلاد الاندلس - اوبلاد المسلمين باسبانيا - في مامن من الاعداء يوماً ما منذ الفتح الاسلامي . فقد كان نصارى الشمال يهددون باسترجاع ارضهم وبلادهم . ولم لا ؟ والمسلمون اجانب عنهم لغة ودينا وجنسا ، وهم غزاة فاتحون . نعم احسن المسلمون [1] معاملتهم ، وتسامحوا معهم ، واباحوا لهم

(1) في صفحة 62 من كتاب صفة جزيرة الاندلس، منتخبة من كتاب «الروض المعطار في خبر الاقطار» وهو معجم جغرافي ، تاريخي لابي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري جمعه سنة 866 هـ، ونشره ا. ليفي بروفنصال : ان عبد العزيز بن موسى بن نصير لما عقد صلحا مع تدمر بن عبدوش اتفق معه علي : « أنه نزل على الصلح وأن له عهد الله وذمته ، وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم ، الا يقدم له ولا لاحد من أصحابه ولا يؤخر ، ولا ينزع من ملكه ، وانهم لا يقتلون ولا يسلبون ، ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا تحرق كنائسهم ، ولا ينزع عن كنائسه ما يعبد . وذلك ما ادى الذي اشترطنا عليه، وأنه صالح على سبع مدائن . . . . . الخ . وكتب في رجب سنة 94 من الهجرة »

حرياتهم الدينية ، ولكنهم (نصارى اسبانيا) لم ينسوا قط ان البلاد التى استولى عليها المسلمون بلادهم ، بها اهلهم ومعابدهم واموالهم . ولم تكن حال المسلمين الداخلية بالاندلس فى استقرار حتى فى اعز اوقات مجدهم . فقد كانت المنافسة الذميمة قائمة دائمة بين العرب والبربر ، وبين عرب اليمن [1] وعرب مضر . وبذلك ظلت دولة الاسلام بالاندلس عرضة لخطر العدو النصرانى فى الشمال ، وفى حال من عدم الانسجام بين عناصرها المختلفة داخل [2] حدودها .

---

(1) وفي صفحة 181 من كتاب صفة جزيرة الاندلس ، منتخبة من كتاب (الروض المعطار في خبر الاقطار) ، وهو معجم تاريخى لابن عبد الله محمد بن عبد الله الحميري : أن رجلا من اليمانية استقى قلة من وادى لورقة ، وأخذ ورقة من كرم لرجل من المضرية ، فغطى بها القلة . فأنكر ذلك المضرى ، وقال : انما فعل ذلك استخفافا بى ، اذ قطع ورق كرمى ، وتفاقم الامر بينهما حتى تحارب الحيان ، وعسكر بعضهم الى بعض. واقتتلا أشد قتال ، وهكذا نجد فى تاريخ الاندلس حوادث كثيرة من هذا الضرب.

(2) انظر صفحة 175 وما بعدها الجزء الثالث من البيان المغرب لابن عذارى حيث تجد ولاة الاطراف والثغور أمثال بنى يحيى فى حرب دائمة مع جيرانهم من ولاة المسلمين ، وكذلك كانت الفتن قائمة بين الولاة انفسهم ووزرائهم أو رجال جيشهم أو أقاربهم وعشيرتهم ، وما كان من منافسة وحرب بين بنى جهور وبنى عباد ، وبين بنى ذى النون وبنى عباد . فكانت حياة البلاد بذلك سلسلة من الاضطرابات.

وكانت الاندلس كذلك مطمع الدول الاسلامية التى تنشأ فى المغرب وافريقيا، ففى عهد عبد الرحمن الناصر - وهو من اقوى خلفاء بنى أمية - طمع الفاطميون فى نشر دولتهم بالاندلس وكان على الخليفة الاموى - بالرغم من وقوف الاعداء فى الشمال بالمرصاد - أن يتقى كذلك خطر الفاطميين من العدوة الافريقية[1] وزاد الطين بلة ان هذا الخليفة العظيم اتخذ قواداً لجيشه من الصقالبة وغيرهم من المرتزقة الافرنجية. فكان لهؤلاء الصقالبة من الخطر على الخلفاء والبلاد ما كان للمماليك الاتراك فى الدولة العباسية.

كان لابد اذن، للاحتفاظ بوحدة الدولة وسلامتها، من قيام خليفة قوي حازم يقظ، ذى شخصية لانهن أمام العوامل الهدامة الكثيرة داخل البلاد وخارجها. وكان طبعيا أن يهوي صرح هذه الدولة اذا تولى شؤونها خليفة ضعيف أو مستضعف أو تفوقت عليه - بالرغم من قوته - العوامل الاخرى المضادة.

وبموت الخليفة عبد الرحمن الناصر أخذت الدولة فى

(1) انظر الصفحات 137 151 165 من كتاب *Histoire des Musulmans D' Espagne par Dozy, (Nouvelle édition par Lévi-Provençal) tome II, Leyde 1932.*

الانهيار، فقد خلفه ابنه الحكم ولم يكن من رجال الادارة والحرب بل كان رجلا همه العلم وجمع الكتب . وخلفه - بعد ستة عشر عاماً ، من حكم ضعيف متراخ من سنة 350 الى سنة 366هـ (961 - 977 م) - ابنه هشام ، وكان صبيا لم يتجاوز الثانية عشرة ، فصارت مقاليد الامور فى الواقع الى نساء القصر والحجاب . وكانت الاندلس مجدودة فى هذه الفترة من حياتها الاسلامية ، فقد كان كبير الحجاب ابن أبى عامر ، الموهوب ذكاء ودهاء، وحزماً وعزماً . وبالرغم من أنه صار الحاكم الفعلي للبلاد ، كان موفقاً فى حروبه التي انتصر فيها أعظم انتصار فصان بذلك سلامة الدولة ، ولذلك لقب نفسه بالمنصور .

ولم تكن سلطة المنصور هذا مستمدة من الملك ولا من الشعب ، فهو قد سود نفسه بالرغم من الشعب والملك ، سود نفسه بقوته وحكمته وطموحه وحسن سياسته . ومثل هذا الرجل لابد أن يصير دكتاتوراً[1] ان أراد أن يضمن لنفسه

---

(1) نعم، صار محمد بن أبى عامر المنصور طاغية ، تبرر الغايات عنده كل وسيلة . وان كانت غاياته عادة فى صالح الجماعة الاسلامية والدولة. فقد =

السلامة ، ولمشروعاته النجاح . ومن مزايا الدكتاتور الصالح أنه ان أصلح صلحت البلاد ، وان فسد أو زال ، فسدت البلاد أو انقطع بزواله الاصلاح .

ولا بد أن يتخلص الدكتاتور من منافسيه ليخلو له جو العمل . وهذا ما حدث من المنصور بن أبى عامر ، فقد تخلص من المصحفي ، وسجن الخليفة فى القصر ، وصار السيد[1] المطاع وقد كان الخليفة ضعيفاً مستضعفاً . ويقول ابن الخطيب[2] انه ـ هشام بن الحكم المؤيد ـ كان مهيناً مشغولا بالنزهات ولعب الصبيان والبنات . وقد حاول المنصور بن أبى عامر أن يقضي على المؤامرات التي دبرت ضده فاستطاع أن يطفىء بعضها

=حدث أن ساد بينه وبين ابنه عبد الله شيء من سوء التفاهم ، وظن أن عبد الله يعمل للتخلص منه ، وفر عبد الله هذا الى نصارى الشمال خوفاً من انتقام أبيه ، ولكن الاب ـ ابن أبى عامر ـ استطاع أن يسترده بالمكر والخديعة والتهديد ثم قتله بعد ذلك (من 305 الجزء الثاني من «البيان المغرب» لابن عذارى المراكشي ، طبعة دوزي)

(1) كان يخاطب بالملك العظيم (صفحة 366 من الجزء الثانى من البيان المغرب لابن عذارى) (2) صفحة 66 من كتاب أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام .

وكان له أعداء من الفقهاء ، ومن رجال الجيش ، بالرغم من ذكائه وكرمه وانتصاراته العظيمة الموفقة ضد الروم.

كانت نار التحزب السياسى والجنسى والديني تشتعل فى البلاد ، ولم تجد من يطفئها ، ليقوى بذلك الجبهة الداخلية والخارجية . والخليفة ضعيف وفى لهوه وعزلته. ويطلب اليه ان يعتزل الخلافة فيمتثل ، ويمثل به[1] ويشهر.

وهكذا تولى خليفة ضعيف اثر خليفة . وتبع ذلك وصاحبه أن دب الوهن فى الدولة وتفككت أوصالها ، وخلع آخر خليفة اموي - هشام بن محمد - فى سنة 422 هـ .

تدبر المؤامرات وتعلن الثورات فى كل ناحية ، ثورات الطوائف المتكالبة على النفوذ لا ثورات شعب مضطهد ضد ملك مستبد، كما كانت حال الثورة الفرنسية. وثار العامة ونهبوا قصر المنصور الذى بناه فى ربض قرطبة ، وثار البربر[2] وقتلوا

---

(1) وصل من ضعف الخليفة هشام بن الحكم ان وافق على ان يكون عبد الرحمن بن المنصور بن ابى عامر الملقب بشبخول ولى عهده مما أثار سخط الناس عامة وبنى امية خاصة (صفحة 45 من الجزء الثالث من البيان المغرب) . (2) وضع البربر السيف فى اهل قرطبة ، =

ونهبوا ، وثار الصقالبة وقتلوا واحرقوا ونهبوا . ولم تكن قرطبة وما جاورها من البلاد في اوائل القرن الخامس الهجري الا بركانا مدمرا ! دمر نفسه وما حواله .

وهنا بدأت فترة جديدة في حياة الدولة الاسلامية باسبانيا، تلك الفترة التى تميزت بحكم ملوك الطوائف . فقد ظهر في النصف الاول من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) نحو من عشرين اسرة مستقلة تحكم نحو عشرين مقاطعة أو مدينة . من هؤلاء بنو عباد في اشبيلية، وبنو حمود في مالقة والجزيرة الخضراء ، وبنو هود في سرقسطة ، والادارسة فى غرناطة. وكان اقوى هؤلاء الملوك بنو ذي النون الذين ملكوا فى طليطلة وحكموا بلنسية[1] ، ومرسية ، والمرية .

= فقتلوا منهم خلقا عظيما . وغرق كثير منهم في الوادي ، وفنوا بسقوط بعضهم على بعض. حدث هذا عقب اضطهاد الخليفة محمد بن عبد الجبار لهم (انظر الصفحات 81 ـ 83 من الجزء الثانى من البيان المغرب) .

(1) بنو ذى النون من قبيلة بربرية كانوا يخدمون الدولة العامرية. وكان اسم جدهم الحامل اسم القبيلة « زنون » فتصحف الى « ذو النون » وكان اولهم فى طليطلة اسماعيل بن عبد الرحمن بن ذى النون . ساس المملكة بحكمة وعقل وحسن نظر. وكذلك جرى على سننه ابنه يحيى.

ونتيجة هذا التفكك في وحدة الدولة وقوتها ان اتيحت الفرصة للعدو في الشمال ان يبدأ الهجوم ، فيهاجم كل امارة على حدة . والمثل السائر: « فرق تسد » وهذا تفرقت قوة المسلمين فمكنت اعداءهم من السيادة .

كان طبيعيا عندما تهاجم قوى النصارى احدى الولايات الاسلامية أن يحدث واحد من ثلاثة اشياء :

(1) أن ينهزم الامير المسلم أمام الغازي النصراني

(2) أن يهادن الامير المسلم الغازي النصراني - او يقبل تبعيته له ويدفع له الجزية .

(3) أن يتغلب الامير المسلم على الغازي النصراني .

وكانت الحالتان الاولى والثانية[1] هما السائدتين . فقد

---

(1) من ذلك ان سليمان بن هود ملك سرقسطة ظاهر النصارى واستعان بهم وحالفهم ضد يحيى بن ذى النون. وكذلك فعل يحيى حفيد بن ذى النون هذا، فانه لما ثار عليه العامة وطردوه من طليطلة راسل اذفونش ملك قشتالة يذكره سالف عهده، فلبى دعواه وسمع شكواه، فأقبل معه الى طليطلة، وقد عاقده على ان يخلى بينه وبين المدينة اذا ابلغه امله من دخولها فجاء اليه وحاصر المدينة معه حتى عجز اهلها عن الدفاع فدخلها والطاغية بين يديه يتبجح ، فاقتضاه الوعد وسلبه المدينة . (راجع صفحة 209 من =

تمكن ملوك النصارى من قضم أطراف الدولة الاسلامية بالتدريج واخضاعها لسلطانهم ، لا سيما وقد اشتدت منافسة ملوك الطوائف فيما بينهم، واستعانوا بملوك النصارى المجاورين لهم على منافسيهم من المسلمين ، على حين نظم ملوك أرجون وقشتالة وليون صفوفهم وكونوا جبهة [1] واحدة قوية.

والنتيجة الطبيعية لهذا الموقف واحدة من اثنتين : اما أن يتحد ملوك الطوائف ليقاوموا خطر الشمال ، واما أن يطلبوا المعونة من اقرب المسلمين اليهم، وهم سكان العدوة الافريقية. هذا اذا ارادوا لانفسهم وبلادهم السلامة والبقاء . وقد حدثت النتيجة الاخيرة، كما سنشير الى هذا بعد .

= أعمال الاعلام لابن الخطيب) . كذلك كان ابن مردنيش يستعين بالروم على خصومه من المسلمين .

(1) تولى الفونس الاول الملقب بالمحارب *El Batallador* عرش أرجون سنة 498 هـ (1105م) وتزوج أوراكا *Urraca* ابنة الفونس السادس ملك ليون وقشتالة ، فلما مات أبوها وكانت ابنته الوحيدة ، ووارثة عرشه ، انضمت ليون وقشتالة الى أرجون. كذلك ودخلت في طاعة الفونس المحارب امارتي جليقية والبرتغال، وكانتا تؤديان الجزية له، فأصبح بذلك يملك معظم شبه الجزيرة ، لا يخرج عن سلطانه الا قطلونية في الشرق وبلاد المسلمين.

كان مصير بلنسية[1] مصير كثير غيرها من كورات الاندلس التابعة لقرطبة . وقد كان فيها لما قامت فتنة قرطبة وقتل عبد الرحمن بن المنصور بن ابى عامر سنة 400 هـ. الوزير عبد الرحمن بن يسار من قبل مجاهد مولى بنى عامر. وكان يشرف على وكالة الساقية والرى بها، عبدان من عبيد بنى عامر، هما مبارك ومظفر. وفى سنة 401 هـ. صرف هذان العبدان عن وكالة الساقية فذهبا الى الوزير عبد الرحمن يرجوانه المساعدة فردهما الى عملهما. ولكن ابن يسار لم يلبث أن اصابه ما اصاب وزراء بنى عامر من محنة فخرج عليه أهل بلنسية وطردوه . وهنا قام بالامارة بعده هذان العبدان.

كانا يقيمان معا فى قصر الامارة كأنهما شقيقان. وكان لمبارك الصدارة فى المخاطبات الرسمية ، بفضل صرامة ونكراء كانتا فيه، يقصر عنهما مظفر لدماثة فى خلقه .

أسرف الاميران فى جمع الجباية، فقد بلغت لاول ولايتهما

---

(1) يهمنا الان ان نتتبع تاريخ بلنسية السياسى والاجتماعى ـ باختصار ـ لانها المدينة التى ولد بها ابن الابار. وعاش فيها قبل هجرته الى تونس .

سبعين الف دينار فى الشهر من بلنسية ، يستخرجانها بأشد العنف من كل سنف، حتى تساقطت الرعية، وجلت أولا فأولا. وخربت اقاليمهم آخرا. فاقبلت الدنيا يومئذ عليهما بكثرة الخراج[1] ولحق بهما الاول أمرهما من موالى المسلمين ومن اجناس الصقلب والافرنج والبشكنس عشيرتهما، ودربوا على الركوب حتى تلاحق ببلنسية كل من رغب فى الفروسية والبسالة ، ونزع اليها كل شريد طريد، وانتمى هؤلاء الاخلاط الاصاغر الى ولاء بنى أبى عامر. وطلب هذان العبدان .. لما اتسعت لهما الدنيا .. فاخر الاسلحة والآلات والخيل . فصارت دولتهما من أسرى الدول، ونفقت سوق المتاع لديهما، وجلبت كل ذخيرة اليهما .

ثم بنيا سور المدينة ، وجعلا له ابوابا حصينة ، فارتفع الطمع عنها ورحل الناس من كل قطر بالاموال اليها . وطمحت بسكانها الآمال ، واستوطنها طائفة من جالية قرطبة القلقة

---

(1) صفحة 160 الجزء الثالث من البيان المغرب فى اخبار ملوك الاندلس والمغرب لابن عذارى المراكشى .

الاستقرار ، وتبوءوا بها المنازل والقصور واتخذوا البساتين الزاهرة واجروا بها المياه المتدفقة . ولكن سرعان ماتغيرت الحال .

فقد سلك مبارك ومظفر سبيل الملوك الجبارين فى اشادة البناء والقصور والتباهي فى عليات الامور الى ابعد الغايات ، واحتذى فعلهما الوزراء والكتاب.

وانغمس مبارك ومظفر فى النعيم ، وجمعا الخراج ولم يعرض لهما عارض وسارعا فى قضاء اللذات حتى أربيا على من تقدم وتأخر .

وهكذا نجد كل ملوك الطوائف تقريبا ينسون واجب البلاد والمسلمين ، وينغمسون فى اللذات على حساب الشعب ، وارهاقه بالخراج. وكان هذان العبدان مثلا لغيرهما من الولاة ساقا الرعية المضطهدة بسلطانهما ، ولم يعبئا بما آذاها من كلفهما ، حتى لقد غدا كثير من الرعية يلبسون الجلود والحصر ، ويأكلون البقل والحشيش ، وفر اكثرهم عن [1] قراهم .

---

(1) صفحة 162 من الجزء الثالث من البيان المغرب . وكذلك صفحة 259 من اعمال الاعلام .

وكان موت مبارك بانه ركب يوما من قصره وقد تعرض له اهلها مستغيثين من مال افترضه، فقال: اللهم ان كنت لا أريد انفاقه فيما يعم المسلمين نفعه فلا تؤخر عقوبتى يومى هذا . وركب اثر ذلك فلما اتى القنطرة وكانت من خشب خرجت رجل فرسه من حرها ، فرمى به اسفلها ، واعترضه خشبة ثانية شدخت وجهه ، وسقط الفرس عليه ففاضت نفسه، وكفاهم الله أمره. وثارت العامة فانتهبوا القصر، وقتل المظفر [1] وانقضت ايامهما .

اتفق أهل بلنسية على تقديم لبيب الصقلى العامرى صاحب ـ طرطوشة ـ ثم شاركه فيها مجاهد العامرى . فكان يخطب لهما معا فى بلنسية وطرطوشة . ثم اختلفا ، واحدث لبيب [2] فى بلنسية احداثا مقته الناس من أجلها . وهرب لبيب الى طرطوشة فانفرد بها، وانفرد مجاهد ببلنسية، وكان

---

(1) صفحة 302 من الجزء الثالث من البيان المغرب واعمال الاعلام صفحة 258ـ260 (2) في دائرة المعارف الاسلامية تحت (بلنسية) أنه أقر بسيادة أمير برشلونة عليه، *Count of Barcelona* فثار الناس لذلك .

شيخ العبيد العامريين، فمكنوه من السلطة فى ذى الحجة سنة 410 هـ (الموافق مايه سنة 1019 م) وخطب له على منبرها ثم قام عليه العبيد فخلعوه ، وبايعوا المنصور [1] فى سنة 411 هـ (الموافق سنة 1021 م) ، وهو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور محمد بن ابى عامر . وكان عبد العزيز هذا قد لجأ الى سرقسطة فى كنف منذر بن يحيى بعد قتل والده عبد الرحمن ولما لحق ببلنسية استقبله الموالى افواجا ، وقلدوه رياستهم لانه كان ابن مولاهم. وقد تقدمت فى عهده بلنسية. وسار فى الناس سيرة حسنة، فتوطد سلطانه، واتخذ من الكتاب اربعة هم: ابن طالوت ، وابن عياش ، وابن عبد العزيز ، وابن التاكرنى كاتب رسائله. وتوفى عبد العزيز المنصور سنة 452 فى ذى الحجة (1061) فكانت ولايته اطول ولاية فى بلنسية . وكان يؤخذ على المنصور هذا اسرافه فى صلة ذوى رحمه من آل أبى عامر مما أضر بالناس، وجلب سخط الجند . فلما مات

---

(1) كان عمره عند ما بويع (في ذى الحجة سنة 411) خمس عشرة سنة ، فقد ولد في جمادى سنة 397 .

اسرع أصحابه الى تأمير ابنه عبد الملك ، الذى لقب بالمظفر . وقام له بالاعداد لذلك كاتب والده ، والمدبر لدولته ، الوزير ابن عبد العزيز. وكان مشهوراً برجاحة العقل. وكان عبد الملك صهراً المأمون يحيى بن ذى النون وزوج ابنته. وكان يتقوى بهذه المصاهرة. غير انه كان منهمكا فى الشراب ، مع رقة الديانة ونقص المروءة ، فأدى هذا الى فساد الاحوال ، وثورة الناس [1] عليه ، ولكن المأمون يحيى بن ذى النون ، أيده وصانه بجيش كثيف بعث به ليقيم بجواره ويشد ركنه ، أول عهده بالولاية .

غير أن عبد الملك بن عبد العزيز اساء عشرة زوجه [2] بنت المأمون يحيى بن ذى النون وأهانها فاتصل ذلك بأبيها فحقد عليه ، وعمل مع وزيره أبى عبد الله محمد بن عيد العزيز المعروف بروبش - والذى ساعده على التولية - على خلعه ، وان يحل الوزير ابو عبد الله بن عبد العزيز هذا محله نائبا

---

(1) صفحة 165 .. 166 وصفحة 303 من الجزء الثالث من البيان المغرب .

(2) كانت متزوجة من قبل من أخيه عبد الرحمن بن عبد العزيز ، ومات عليها.

وخليفة عن يحيى بن ذى النون. وقد تم هذا فقدم يحيى بن ذي النون من طليطلة على سبيل[1] الزيارة - وكانت بنته قد توفيت قبل ذلك - ونزل خارج بلنسية بمسكره فخرج اليه عبد الملك مرحبا وأدخله قصره مبالغة فى اكرامه. ولكن المأمون يحيى بعد ان تم له التدبير قبض علي عبد الملك وابنه سنة 457 (1065) واخرجهما ليلا الى مدينة «سنت برية» من أعمال ابن ذى النون. فأقام بها عبد الملك يسيرا ثم هلك. ولحق ابنه بسرقسطة فمات بها.

---

(1) في دائرة المعارف الاسلاميه تحت عنوان بلنسية ان فرديناند الاول حاكم قشتالة وليون هاجم بلنسية بعد تولية عبد الملك، وانزل باهل المدينة اشد العذاب والتقتيل، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها وقد استعان عبد الملك بصهره المامون يحيى بن ذى النون ضد فرديناند المهاجم، ولكن المامون غدر بعبد الملك وخلعه وقد ذكر *Dozy* و *Lévi Provençal*, تفصيل هذا الغزو فى صفحتى 78 - 79 من الجزء الثالث من كتاب:

Histoire des Musulmans d' Espagne . Leyde , 1932

معتمدين في روايتيهما على الذخيرة لابن بسام (آخر صفحة من مخطوط *Gotha*) وعلى نفح الطيب، وعلى ما ورد في صفحة 252 - 253 من الجزء الثالث من البيان المغرب. وقد رجعت للبيان المغرب (نشر ليفى بروفنصال) فوجدته اخطأ في اسم أمير بلنسية في ذلك الوقت، وذكر أنه عبد العزيز بن أبي عامر والصواب عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر.

استخلف المأمون اذاً ابا عبد الله محمد بن عبد العزيز وزير عبد الملك على بلنسية وعاد الى بلاده . فلما بلغ طليطلة واستقر بها ثار ببلنسية ابو بكر بن عبد العزيز اخو عبد الملك وقبض على الوزير روبش بن عبد العزيز، واعتقله سنة 467 هـ ثم انصرف الى اصلاح احوال الرعية. وكانت مدة حكم الوزير روبش نحو عشر سنوات من 457 الى 467 هـ (1065 الى 1076م) وفى أواخر ايامه مات المأمون يحيى بن ذى النون .

كان ابو بكر محمد بن العزيز العامرى فقيها عالما عادلا انصرف الى تحصين بلنسية ورفع ما وهى من سورها، ونظر فى شئون العمال وأجزل العطاء للجند . وفى عهده اشتغل الناس بالعلوم ووجدوا منه تشجيعا. وكانت ايامه أيام عدل ورخاء، ولم يكن فيها ما يعاب[1] عليه. ومات يوم الجمعة السابع من صفر سنة 478 هـ (1085م) بعد ولاية عشر سنوات وشهر. وأوصى ان يلى بعده ابنه أبو عمرو عثمان .

توفى يحيى بن ذى النون فى سنة 467هـ (1075م)

---

(1) كان يعترف بالتبعية الاسمية لبنى ذي النون وان كان في الواقع مستقلا.

فخلفه حفيده وسميه يحيى بن اسماعيل بن يحيى بن اسماعيل بن ذى النون وكان يلقب بالقادر بالله وكان ضعيفا مغمورا. وكان جده من قبل قد استعان بملوك الشمال من النصارى[1] ضد بنى هود. وشعر القادر ان بلنسية قد خرجت عن سلطانه فلجأ الى الفونس السادس ـ ملك قشتالة ـ ليخضع له بلنسية. وكان القادر يدفع ـ كما كان يدفع جده من قبل ـ جزية سنوية للامبراطور الفونس السادس، فلما عجز عن دفع كل ما طلبه الفونس الذى هدد بالاستيلاء عنوة على بلاده وافق القادر على ان يسلم له طليطلة بشروط[2] منها أن يساعد الفونس القادر بالله على ان يستولى على بلنسية.

وكان فى بلنسية أخ لابى عمرو عثمان بن ابى بكر محمد ابن عبد العزيز ينافسه الامارة، بينما كان حزب ثالث يرى أن

---

(1) في صفحة 278 وما بعدها من البيان المغرب، وصفحة 206 من اعمال الاعلام. (2) تم الاتفاق على هذه الشروط فى سنة 484 هجرية (25 مايه سنة 1085) عند ما دخل الفونس السادس طليطلة، انظر صفحة 121 جزء ثالث من *Histoire des Musulmans d' Espagne, par Dozy et Lévi Provençal, 1932* وكذلك صفحة 210 من اعمال الاعلام.

تسلم المدينة لامير سرقسطة بدلا من ان يتملكها القادر التابع لالفونس . وحزب رابع يدعو القادر بن ذى النون. ولم يكن احد يستطيع أن يقاوم القادر لانه كان مؤيدا بجيش من الفونس تحت امرة القائد المشهور *Alvar Fañez* .

دخل القادر بلنسية سنة 478 هـ (1085 م) وبذلك كانت دولة الامير ابى عمرو بها تسعة اشهر . وكان آخر بنى عامر فيها. وكان على اهل بلنسية أن يمونوا جيش الفونسو ، الذى كلفهم كل يوم 600 قطعة من الذهب. وقد اثقل هذا كاهل الرعية . ولم يجدهم أن قالوا له انه لا داعى للاحتفاظ بهذا الجيش فقد كانوا مخلصين مطيعين . وذلك لانه لم يثق بهم ، ولانه كان يخشى منافسيه الطامعين فى حكم المدينة . وكان لا يستطيع التخلص من الجيش الذى احتل البلاد بايعاز من الفونسو . فما كان من القادر الا ان يزيد فى فرض الضرائب وبالرغم من ذلك واستنفاد كل موارد البلاد كان قائد الجيش يلح فى طلب المال . اقترح القادر على الجيش اذاً ان يستقر فى البلاد ويقيم بها ويستولى على اراضيها بدلا من الجزية . فأقام

أهل نشتالة من الجنود فى كورة بلنسية، واستخدموا العبيد فى فلاحة الارض، واستمروا فى غاراتهم ونهبهم . وزاد عددهم وانضم اليهم الاوباش من العرب والارقاء والمجرمين والمتشردين من المسلمين الذين خرجوا عن دينهم. فكانوا يقتلون الرجال ويهتكون اعراض النساء، ويبيعون الاسير المسلم بجرة من الخمر أو رغيف من الخبز، أو قطعة من السمك. فاذا عجز الاسير عن دفع الفداء قطعوا لسانه، وسملوا عينيه [1] ومثلوا بأطرافه.

لقد أصبحت بلنسية اذاً من املاك الفونس السادس من الناحية الواقعية، وان كان القادر ملكها الاسمى . وكانت كلمة واحدة من الفونس كافية لضم أراضى بلنسية الى امبراطوريته أما سرقسطة فقد بدت كانها اوشكت على السقوط. فقد حاصرها الفونس وأقسم أن يستولى عليها .

هكذا ساءت حال بلنسية، وضاق السكان ذعا بالامير وأنصاره،

---

(1) صفحة 693 وما بعدها من كتاب دوزي *Spanish Islam* ترجمه من الفرنسية *F. G. Stokes* طبعة سنة 1913، ويسمى كذلك *Moslems in Spain*

وأدركوا ان الخطر يهددهم من كل جانب ، ولم يجدوا حيلة الا التخلص من الامير يحيى القادر بالله هذا . ويقول ابن عذارى[1] المراكشي : ولما ملك القادر بلنسية أحدث فيها أحداثا وغير أحكاما ، وأظهر منكرا كثيرا ، وصادق الفنش وهاداه وراسله فخاف أهل بلنسية منه أن يملكها الفنش كما ملكه طليطلة ، فاجتمعوا وعزموا على قتله وتقديم ابن[2] حجاف فدخلوا عليه وقتلوه ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من رمضان سنة 485 هـ (1092 م) وبويع ابن حجاف في صبيحتها وهو يوم الثلاثاء الرابع والعشرون من رمضان . وبالرغم من فشل القادر وكراهية الناس له شق عليهم أن يقتل هكذا ، ومنهم من تنبأ بأن مصير ابن حجاف سيكون القتل كذلك . فلقد قال عبد الرحمن بن طاهر[3] في ابن حجاف وكان اخيف :

---

(1) صفحة 305 من الجزء الثالث.

(2) هو ابو أحمد جعفر بن عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن حجاف بن يمن بن مسعد المعافري ، قاضي بلنسية. سمع الحديث من ابي العباس العددي وغيره . (3) قال ابن بسام في الذخيرة : ومد لعبد الرحمن بن طاهر هذا في البقاء ، حتى تجاوز مصارع جماعة الرؤساء ، وشهد محنة المسلمين ببلنسية على يد الطاغية الكنبيطور (يعني السيد) وتوفي عبد الرحمن =

أيها الاخيف مهلا ❀ فلقد جئت عويصا

اذ قتلت الملك يحيى ❀ وتقمصت القميصا

رب يوم فيه تجرى ❀ لم تجد عنه محيصا

ودخل ابن حجاف [1] قصر الامارة ، فاستولى على ما فيه من الاموال وذخائر الملوك . وأقام أميرا على بلنسية الى أن غزاها السيد : « *Rodrigo Díaz de Vivar* » بطل قشتالة الذى يسميه مؤرخو العرب القنبيطور. والسيد [2] هذا قصة يجدر بنا ايجازها .

يظهر اسم لذريق *Rodrigo* السيد لاول مرة فى التاريخ

= ببلنسية في جمادى الآخرة سنه 508ه وصلى عليه في المسجد الجامع ثم سير به الى مرسية حيث دفن بها . وكان عبد الرحمن بن طاهر أمير مرسية ثم استقل بها الى ان طرده منها ابن عمار سنة 471 (1078م) فلجأ الى بلنسية.

(1) يقول دوزى فى صفحة 333 من الجزء الثاني من كتاب *Mohammedan Dynasties in Spain* :«ان ابن حجاف استطاع بمعونة لمة من المرابطين (الذين كانوا قد وصلوا الى اسبانيا من قبل) ان يهجم على القادر ويقتله ». ذلك لان ابن حجاف كان قد اعلن ولاءه للمرابطين.

(2) يرى المؤرخون أنه لقب «السيد» لان اتباعه من العرب المحاربين فى جيشه كانوا يقولون له : يا « سيد » باعتباره قائدهم ، فلازمه هذا اللقب وهو: *El Cid Campeador* .

سنة456هـ سنة1064 حينما انتصر فى احدى مبارزاته على احد فرسان مقاطعة نافارا. فعين اثر ذلك قائدا لجنود قشتالة ولحق بخدمة سانشو أميرها . ثم بخدمة اخيه الفونسو السادس الذى زوجه بنت عمه .

وحدث من الخلاف والحقد بين السيد والفونسو السادس هذا ما دعاه الى نفيه من البلاد سنة 474 هـ (1081م) وطلب اليه ان يغادر قشتالة فى تسعة ايام . فجمع لذريق اصحابه ورجاله واتباعه ، واخبرهم بما آل اليه أمره . فتجمعوا حوله ، واتجه بهم - وكانوا نحو امن ستين فارسا - نحو برغس *Burgos* فرفض اهلها استقباله لان الفونسو حذرهم من ذلك، فاتجه نحو سنت مارى . ثم غادرها الى دير « سنت بدرو » حيث كانت تقيم زوجته «الرونه شيمانه» ومعها بنتاها الصغيرتان ، فودعهن وخرج برجاله من مقاطعة قشتالة .

اتجه لذريق نحو سرقسطة التى كانت على الحدود الشمالية وكان واليها اذ ذاك احمد بن سليمان بن هود الملقب بالمنتصر. وكان من عادة ملوك الطوائف أن يتخذوا فى جيشهم قوادا

وجنوداً من النصارى. فلما عرض لذريق خدمته على أمير سرقسطة - وكان أقوى ملوك المسلمين - رحب به وضمه الى جيشه .

اتخذ السيد مقاطعة سرقسطة مركزا له ولرجاله، ومنها كان يشن الغارات على مقاطعة ارغون فيعود بالغنائم والاسلاب، ومنها ايضا قاد العرب فى محاربة كونت برشلونة ، ففاز عليه واضطر الكونت الى محالفته .

وكان القادر بالله بن يحيى بن ذى النون قد استصرخ بأمير سرقطة لحمايته من منافسيه فى بلنسية، ومن ثورة الاهالى عليه، فأرسل اليه أمير سرقسطة السيد لحمايته. فاستقبله اميرها خير استقبال، وعقد معه ميثاقا تعهد فيه ان يمنحه كل اسبوع[1] اتاوة معينة لقاء اخضاع اهل الحصن لطاعته، وحمايته . وبهذا استقر فى مقاطعة بلنسية جزء من جيش السيد ، يعيش من الاتاوة ومما يصيبه من غاراته على الكور المجاورة ، مثل دانية وشاطبة .

---

(1) ص 173 من كتاب العرب فى اسبانيا لمؤلفه *Stanley Lane - Poole* وترجمة على الجارم وطبعته دار المعارف.

علم السيد [1] بمقتل القادر يحيى بن ذى النون الذى وعد بحمايته ، وكان هو ـ كعادته ـ يغير برجاله على المدن والمقاطعات المغزو والغنيمة ، فصمم على غزو بلنسية . فتقدم اليها برجاله وحاصرها، وضايقها مضايقة شديدة. وكان ابن حجاف قد اعلن ولاءه ليوسف بن تاشفين الذي عبر من افريقية الى الاندلس لحماية ملوك الطوائف من غزو الفونسو السادس. فأخذ يستصرخ [2] بيوسف امير المسلمين ولكن [3] يوسف هذا كان مشغولا فى غربى الاندلس ، فأبطأت عليه النجدة . اما السيد فقد حصر بلنسية حصراً عظيماً ، وقطع عنها المرافق ونصب المجانيق ونقب الاسوار. وعدم الناس الطعام، وأكلوا الفيران والكلاب والجياف، الى ان اكل الناس الناس . ومن مات منهم اكلوه . فبلغ الناس من الجهد ما لا [4] يطيقون. فلما طال عليهم البلاء،

---

(1) يسمى بعض مؤرخي الغرب السيد هذا *Dominus Campi* ومعناه «صاحب الفحص» او *Le maitre des Champs* اى رئيس المعسكر .
(2) صفحة 333 من كتاب *Moh. Dynasties in Spain* الجزء الثانى لمؤلفه دوزى (3) سنشير الى الدور الذى قام به الملثمون (المرابطون) فى استخلاص بلنسية من يد السيد . (4) صفحة 305 وما بعدها من =

وعدموا الصبر ، وكان المرابطون قد خرجوا من الاندلس الى العدوة، ولم يجدوا ناصرا عزموا على تسليمها للقنبيطور »

هكذا ظلت بلنسية محاصرة تسعة اشهر لاقى فيها أهل المدينة الشدائد والمحن . وآض اهل بلنسية فى هذا الحصار القاتل اشباحا هزيلة. وكان اذا وثب احدهم من السور، او القاه اهل المدينة لانه لاغناء فيه تلقته سيوف اتباع السيد ، او ابقت عليه

= الجزء الثالث من البيان المغرب لابن عذارى. وهنا يقول «وقدألف ابن علقمة كتابا فى أمرها وحصارها يبكى القارئ ويذهل العقل» وتجد فى صفحة 45 من الجزء الثانى من كتاب *Rechérches sur l' Histoire Politique et Litteraire de l' Espagne par Dozy* اشارة الى كتاب «تاريخ بلنسة» هذا لابن علقمة . وهو يقول ان ابن الخطيب ذكر هذا الكتاب فى مقدمة «الاحاطة فى تاريخ غرناطة» على انه احد الكتب التى اعتمد عليها . ويقول دوزى ان لابن عبد الملك المراكشى - من مؤرخى اواخر القرن السابع الهجري - مخطوطا فى باريس *n°. 682* به مقال عن ابن علقمة وهو محمد بن الخلف بن الحسن بن اسماعيل الصدفى البلنسى ابو عبد الله بن علقمة، تتلمذ على محمد بن حيان الروشى وعلى غيره وكان اهم ما زاوله كتابة رسائل الدواوين . وقد كتب تاريخا لغزو بلنسية على يد النصارى سنة 500 ه وولد فى سنة 428 (6-1037) ومات يوم الاحد 25 شوال سنة 509 (12 مارس سنة 1116 م) . ولكن ليفى بروفنصال يسميه « ابو العباس احمد بن علقمة » فى صفحة 228 من الجزء الثالث من *Histoire des Musulmans d' Espagne.*

فبيع كما يباع العبيد. واخيرا سلمت المدينة فى 488 هـ (1094 م ووقف السيد مرة اخرى فوق حصونها منتصرا، ثم املى شروطا قاسية ، وطرد كثيرا من سكان المدينة فاحتل ديارهم وارضهم القشتاليون. وارسل السيد يستقدم زوجه وبنتيه ، ودعا بنفسه ملكا على بلنسيه[1] فكانت دولة ابن جحاف ثلاث سنوات واربعة اشهر وسبعة ايام .

ثم ان القنبيطور تسلم من ابن جحاف جميع ذخائر المقتدر وكان قد اخذ منها ذخيرة نفيسة . فسأله عنها فانكرها . فامره بالحلف بحضرة الشهود واعيان المسلمين والنصارى فحلف انه ما رآها، ولا هي عنده فخلى سبيله. ثم ان القنبيطور عثر بعد ذلك عليها عنده . فكان ذلك سبب غضبه عليه مما أدى الى[2] قتله.

---

(1) راجع ما نشره دوزى فى كتابه *Recherches sur l' Histoire et la Litterature de l' Espagne, Tome II, p. 483* معتمدا فى ذلك على مخطوط لم ينشر بعد لكتاب الذخيرة . (2) فى صفحة 306 من الجزء الثالث من البيان المغرب يقتبس ابن عذارى من كتاب ابن علقمة فيقول : « وقال ابو العباس احمد بن علقمة فى تاريخه وهو ممن شهد المواطن وكان فى الحصار..» فكان ابن علقمة يسمى أبا العباس احمد بخلاف ما ذهب اليه ابن عبد الملك المراكشى من تسميته محمد بن الخلف

ويقول ابن الابار [1] فى الحلة السيراء : وترك (الكنبيطور) ابن جحاف على القضاء نحوا من عـام . ثم اعتقله واهل بيته وقرابته ، وجعل يطالبهم بمال القادر بن ذى النون . ولـم يزل يستخرج ما عندهم بالضرب والاهانة وغليظ العذاب ، ثم امر باحراق نار عظيمة كانت تلفح الوجوه على مسافة بعيدة. وجىء بالقـاضى ابى احمد يوسف فى قيوده ، واهـله وبنـوه حوله فامر باحراقهم جميعا فضج المسلمون والروم وقد اجتمعوا لذلك ، ورغبوا فى ترك الاطفـال والعيـال فاسعفهم بعد جهـد شديد . واحتفر للقاضى حفرة ، وذلك بولجة بلنسية وأدخـل فيها الى حنجرته ، وسوى التراب حوله ، وضمت النار نحوه فلما دنت منه وافحت وجهه قال : باسم الله الرحمن الرحيم . وقبض على اقباسها وضمها الى جسده يستعجل المنية فـاحترق رحمه الله فى جمادى الاولى سنة 488 .

بذلك صارت بلنسية للسيد وحده ، فضرب أتاوات فادحة

---

(1) راجع صفحة *XXVII* من كتاب *Recherches sur l' Histoire Politique* الجزء الثانى لمؤلفـه دوزى حيث يقتبس من مخطوط الحلة السيراء فى *Société Asiatique de Paris*

عليها وعلى جيرانها ، حتى بلغ دخله فى السنة من بلنسية وحدها مائة وعشرين الف دينار ، ووصل الى عشرة آلف من ابن رزين صاحب السهلة ، والى ستة آلف من امير [1] موبيطر .

وعندما جاء المرابطون الى اسبانيا حاولوا ان يستردوا مملكة بلنسية للمسلمين من السيد ولكن جهودهم ضد السيد فشلت. فلما مات سنة 492 (1099) بقيت زوجه شيمانه *Ximena* تدافع عن المدينة ضد هجوم المرابطين ، هذا الهجوم الذى كان يقوده الامير مزدلى. ولكنها فى النهاية هجرت بلنسية[2] بعد احراقها. ثم دخلها المسلمون فى 15 رجب سنة 495 (5 مايه سنة 1102) أى قبل مولد ابن الابار بقرن تقريبا. ولما كانت بلنسية قد صارت بذلك تابعة للمرابطين ناسب ان نذكر شيئا عنهم .

أسس الامير ابو بكر بن عمر اللمتونى مدينة مراكش سنة 462 هـ (69 ـ 1070 م) وأتم بناءها يوسف بن تاشفين

(1) صفحة 174 العرب فى اسبانيا ترجمة الجارم (2) دائرة المعارف الاسلامية تحت عنوان «بلنسية» وقد قال فيها ابو اسحاق ابراهيم بن ابى الفتح بن خفاجة مات سنة 533 ـ 1138 يصف حالتها بعد الحريق:

عاشت بساحتك الظبى يادار ومحا محاسنك البلى والنار

راجع صفة جزيرة الاندلس (الروض المعطار) ص 47 .

وجعلها حاضرة ملكه، واستمر يغزو بقية بلاد المغرب حتى فتح معظمها ، وكان يترك في كل مدينة أو ولاية يفتحها حاكما من قبله . وعاد يوسف الى مراكش حضرة مملكته فى سنة 475 هـ (2 ـ 1083م)، وقد انتشر سلطانه وقوى نفوذه فى المغرب الاقصى .

أما فى الاندلس فقد كانت الحال تسير من سيىء الى اسوأ فملوك الطوائف فى تنافس دائم مرير ، وملوك النصارى فى الشمال يوالون هجومهم، وقد فرضوا الاتاوة على بلاد المسلمين التى سادتها الفوضى، من ذلك ما قام من حروب بين بنى هود امراء سرقسطة وبنى ذى النون. ويروى لنا ابن عذاري[1] مثلا كيف طمع يحيى بن ذي النون فى مدينة وادي الحجارة التى تقع بين بلاده وبلاد سليمان بن محمد بن هود فقامت بينهما حرب هزم فيها يحيى ولجأ الى التناصر فرديناند ملك قشتاله فجاءت جيوش ونزلت بارض بني هود تقتل وتأسر وتدمر ، ولم يقف أحد من المسلمين فى وجههم . . وظاهر سليمان بن هود النصارى

(1) الصفحات 277 ـ 282 من الجزء الثالث .

ايضا، فراسل فرديناند وبعث اليه بأموال جمة وهدايا جليلة، وسأله الخروج الى بلد ذي النون فخرج بعدد عظيم الى ثغر طليطلة فأفنى حماته ورجاله وعاث فى بلادهم.

واذاً فلم يبق الا مخرج واحد من هذه الحال، اذ لم يمكن اتفاق ملوك الطوائف وتوحيد كلمتهم، ذلك المخرج هو الاستعانة بيوسف بن تاشفين ملك المرابطين، وكأن المعتمد ابن عباد - حين لجأ الى يوسف بن تاشفين - كان يتمثل بقول على بن ابى طالب:

فان كنت مأكولا فكن خير آكل والا فأدركني ولما أمزق

ويقول ابن خلدون[1]: وسار الطاغية (الفونسو السادس) فى بلاد الاندلس حتى وقف بفرضة المجاز من طريف، وأعيا أمره أهل الاندلس، واقتضى منهم الجزية، فأعطوها. ثم نازل سرقسطة، وضيق على ابن هود بها، وطال مقامه، وامتد أمله الى تملكها، فخاطب المعتمد بن عباد[2] امير المسلمين

---

(1) صفحة 186 من الجزء السادس من كتاب تاريخ ابن خلدون طبع مصر.

(2) يروى ان بعض ملوك الطوائف حذر المعتمد من خطر المرابطين فاجاب بقوله =

يوسف بن تاشفين منتجزا وعده ، وكاتبه أهل الاندلس كافة من العلماء والخاصة ، فاهتز للجهاد وعبر الى الاندلس ، وجعل الجزيرة الخضراء مركزاً لجيوشه ، وسار نحو الشمال فاستقبله المعتمد بن عباد ، وحاربا معاً وانتصرا فى موقعة[1] الزلاقة فى 12 رجب سنة 479 (الثالث والعشرين من اكتوبر سنة 1086) وكان من آثار هذه الموقعة أن اشتد ساعد المسلمين - عهداً من الزمن - ضد غزوات الشمال ، وشعر المسلمون بشىء من الاطمئنان والحماية ، وأنقذوا من دفع الضرائب لألفنس.

= «لان أكون سائق جمال فى الصحراء خير من ان ارعى الخنازير فى قشتالة». ويذكر دوزى فى صفحة 240 من كتاب *Historia Abbadidarum* ان عبارة ابن عباد هى «رعى الجمال خير من رعى الخنازير».

(1) تسمى عند المسيحيين موقعة *Sacralias* وقد حدثت فى بطحاء الزلاقة من اقليم بطليوس وقد ذكر ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميرى الاسباب التى ادت الى سوء التفاهم بين المعتمد بن عباد واذفونش (*Alfonso*) بن فرذلند، ودعوة المرابطين الى الاندلس، ووصف موقعة الزلاقة، فى كتابه الروض المعطار. انظر صفة 83 من صفة جزيرة الاندلس - منتخب من كتاب الروض المعطار - عنى بنشره لافى بروفنصال ويذكر ابن خلدون - فى تاريخه - ان موقعة الزلاقة كانت فى سنة 481 وقد اخطأ فى هذا كما اخطأ عبد الواحد المراكشى فى كتابه «المعجب» عند ما ذكر ان سنة الموقعة كانت 480 هـ.

كان يوسف بن تاشفين يطمع فى غزو بلاد النصارى فى الشمال لولا موت ابنه الاكبر الذى تركه مريضا فى سبتة . فرجع إلى العدوة الافريقية مكتفيا بترك جيش مؤلف من 3000 رجل تحت قيادة المعتمد ، ويقول ابن(1) خلدون :

«ثم رجع الى مراكش وخلف عسكرا بالاشبيلية لنظر محمد ومجون بن سيمونن بن محمد بن وركوت... وكان محمد من بطانته ، وأعاظم قواد تكاليب الطاغية على شرق الاندلس».

وقد اشرنا الى ما كان من استيلاء السيد على بلنسية. ومن الغريب ان استيلاءه حدث فى الوقت الذى كانت فيه جيوش المرابطين بغربي الاندلس ، وكان الفونس قد هزم وصد الى الشمال . وبدأ الاطمئنان يصل الى قلوب ملوك الطوائف . وبالرغم من ان بعض قواد المرابطين كان قد اتجه الى الشرق (شرق الاندلس) لمحاربة أمراء الطوائف وضم ولاياتهم لنفوذ المرابطين ، بالرغم من هذا كانت بلنسية قد خرجت من يد المسلمين . من ذلك ان محمد بن الحاج قائد يوسف بن تاشفين

(1) صفحة 186 الجزء السادس طبعة فى القاهرة .

زحف بعساكره من سبتة الى شرق الاندلس وخلع ابن رشيق صاحب مرسية ، وتمادى الى دانية ففر علي بن مجاهد امامه الى بجاية . وقدم ابن الحاج معونة للقاضي ابن جحاف عندما استعان به اولا ضد القادر بن ذى النون، وقتله . ولكن جيوش المرابطين انصرفت عن بلنسية ولم تحاول استخلاصها من السيد الا فى سنة 495 على يد الامير ابي محمد مزدلى من قواد المرابطين وذلك فى شهر رجب 25 أكتوبر سنة 1101 . وبذلك عادت بلنسية الى حظيرة الاسلام وسلطان المسلمين بعدما قاسى أهلها أضرب البؤس والاضطهاد والتدمير والقتل . وهرب كثير منهم بدينه وحياته الى مدن وكور أخرى مجاورة أو بعيدة . وظلت هذه المدينة عشر سنوات فى دار المسيحية .

ويحدثنا ابن الابار فى المعجم[1] أن محمد بن أحمد بن تمارة الحجري ـ وكان قد ولد سنة 484 فى بلنسية ـ اضطر أن يهاجر مع أبيه أيام الفتنة وأن يبقى بعيداً الى أن عادت المدينة

---

(1) صفحة 178 من طبعة كوديرا ، مدريد .

الى الاسلام فرجع معه سنة 508 وأن عيسى[1] بن سعادة مولى سعيد بن نصر - وكان من علماء بلنسية .. خرج منها عند ما تملكها الروم بعد الثمانين والاربعمائة ، الى دانية . وفى كتاب « تكملة[2] الصلة » أن محمد بن يحيى بن محمد بن أبي اسحاق . . . بن عمرو بن العاص الانصاري خرج من موطنه (لرية) - من عمل بلنسية - في سنة 488 بعد تغلب الروم على بلنسية ، واستوطن جيان نحواً من سبعة أعوام .. ثم انصرف الى بلنسية سنة فتحها وذلك على يد المسلمين في رجب سنة 495 .

فهذه أمثلة تدل على ما آلت اليه حال بلنسية العلمية في أواخر القرن الخامس الهجري عند ما تملكها الروم ، وهى تدل أيضاً على اضطراب الحياة العلمية وانقطاع تقدمها فترة من الزمن ، وما يعقب هذه الفترة أيضا من فترة نقاهة تطول أو تقصر حسب اطمئنان الناس الى الامن والسلامة.

---

(1) صفحة 188 من طبعة كوديرا - مدريد . (2) صفحة 196 من التكملة طبعة كوديرا، مدريد .

ظلت اذاً بلنسية فى أيدي المسيحيين نحوا من عشر سنوات حتى فتحها القائد اللمتوني مزدلى[1] الذى بقى حاكما عليها الى سنة 497 عند ما بعث به يوسف بن تشفين الى تلمسان لما كان فيها من خلاف بين المنصور بن الناصر وتاشفين بن يتنعمر ، وولى عوضا عنه أبا محمد بن فاطمة الى ان توفى سنة 510 ، فخلفه أبو بكر بن[2] ابراهيم المسوفى واليا على شرق الاندلس ونزل بلنسية :

ثم صارت بلنسية الى يحيى بن غانية الملثم حين ولى جميع شرق الاندلس ، نائبا عن[3] على بن يوسف بن تاشفين ، وكان يحيى هذا ـ الملقب أبا زكرياء .. واليا كذلك ، من قبل ، على غرب الاندلس سنة 520 واستطاع من سنة 520 الى سنة 538 هـ (1126 ـ 1143 م) أن يدفع هجوم[4] الروم على

---

(1) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون ، الجزء السادس ص 188 طبعة بولاق. (2) هو ممدوح ابن خفاجة الشاعر المشهور. ومخدوم ابى بكر بن ماجة التجيبي المعروف بابن الصائغ . (3) صفحة 577 من الجزء الثالث من نفح الطيب . (4) صفحة 378 من الجزء الثانى من دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الانجليزية.

الاندلس من الشمال . وقد ظل يحيى بن غانية هذا واليا للمرابطين حتى بعد سقوط سلطانهم فى مراكش .

عين أبو زكرياء[1] يحيى بن غانية ابن أخيه عبد الله ابن محمد بن علي بن غانية واليا على بلنسية من قبله. وليس

---

(1) يجدر بنا ان نذكر هنا شيئا عن حياة يحيى بن غانية هذا لاهمية الدور الذى قام به فى تاريخ الاندلس الحربى والسياسى :

هو يحيى بن علي بن يوسف المسوفى . ولد فى قرطبة ـ على رأى ابن الخطيب ـ ومات فى غرناطة سنة 543 (1148) واسم امه غانية . وهى احدى قريبات يوسف بن تاشفين، وقد نشأ ابن غانية وأخذه محمد فى بلاط المرابطين بمراكش حاضرة العدوة الافريقية فى عهد المرابطين حيث كان والدهما فى منصب كبير . وفى سنة 520 عين يحيى حاكما على غرب الاندلس وتمكن سنة 538 من هزيمة الفونس المحارب ملك أرجون . وفى سنة 536 ـ عند ما ظهر سلطان الموحدين ـ بدأت بين مسلمى اسبانيا حركة الثورة ضد المرابطين بقيادة بعض الامراء أمثال ابى القاسم أحمد . وقاضى قرطبة ابى جعفر ابن حمدين بن محمد بن حمدين، وابن الحكم بن حيون فى مالقة، والمستنصر بن هود فى سرقسطة. وكان يحيى بن غانية اميرا على اشبيلية . فاستولى على قرطبة بعد خروجها على المرابطين سنة 539 بقيادة ابن حمدين الذى استعان بالفونسو السابع ملك قشتالة . وهو الذى حاصر قرطبة فى سنة 540 (1146) ولكن وصول جيوش الموحدين حمله على ان يرفع الحصار. ثم تحالف ابن غانية مع قائد جيوش الموحدين المسمى براز *Barráz*، واعطاه ابن غانية قرطبة وقرمونة واخذ بدلا منهما جيان فى الشرق سنة 543 (1148) وجعل غرناطة مركز اقامته ومات بها بعد قليل فى شعبان سنة 543 . ولم يترك له نسلا .

عبد الله هذا أخ يحيى بن غانية كما زعم المقرى فى نفح الطيب ، ولكنه ابن[1] أخيه كما ذكرت .

كان قاضي بلنسية فى عهد عبد الله بن غانية هذا. هو ابو عبد الملك مروان بن عبد الله بن مروان بن محمد بن مروان بن عبد العزيز . فلما انتهى الى بلنسية الخبر بقيام القاضي ابي جعفر بن حمدين فى قرطبة ضد المرابطين سنة 539 ، ومبايعة الناس له فى جامعها الاعظم ، وأن يحيى بن غانية والي غرب الاندلس من قبل المرابطين لم يستطع فتح قلعة ابلة التي كان يحاصرها من قبل وأعجزه أمرها ، توترت الحال فى بلنسية ، وأخذ الناس يتذمرون ويتآمرون ضد حكم المرابطين . وكان بين القاضي أبي عبد الله مروان بن عبد العزيز وبين الوالي عبد الله بن غانية منافسة فى الباطن ، وبالرغم

---

(1) ص 577 من الجزء الثاني من نفح الطيب، يذكر المؤلف أنه أخوه ولكن ابن الابار - فى صفحة 111 من المعجم ، وكذلك فى الحلة السيراء طبعة دوزى ... Notices صفحة 212 - يذكر أنه ابن اخيه ويشير الى نسبه بأنه عبد الله بن محمد بن علي بن يوسف. وفى دائرة المعارف الاسلامية تحت عنوان «ابن غانية» ما يفيد صراحة بان يحيى بن غانية لم يكن له الا اخ واحد هو محمد والد عبد الله.

من هذا اتفقا على الائتلاف وترك الخلاف ، وحضر الناس المسجد الجامع ، فقام فيهم القاضي مروان بن عبد العزيز خطيبا ، يذكر بجهاد اللمتونيين ضد الروم ، واستنقاذهم بلنسية من أيديهم ، ويحض على التمسك بدعوتهم ، والوفاء لهم.

ثم قام الوالي عبد الله بن غانية ، وتكلم بما حضره في هذا المعنى . وذكر الناس بما انتظم بينهم وبين عدوه يحيى من الصحبة. وبعد ذلك انصرف الجمع .

ولكنه حدث بعد الانصراف أن نمى الى عبد الله بن غانية الوالي من القول عن القاضي مروان[1] بن عبد العزيز ما جعله يتشكك في نواياه وحسن اخلاصه ، وما أثار في نفسه الخوف وعدم الاطمئنان الى البقاء بالمدينة .

كانت هذه الظروف الجديدة اذاً بدء اضطراب جديد

---

(1) يترجم ابن الابار في صفحة 191 من (المعجم) حياة القاضي مروان ابن عبد العزيز هذا فيقول: هو ابو عبد الملك قاضي بلنسية، واميرها في الفتنة عند انقراض الدولة اللمتونية . أجاز له ابو علي وابن ابي تايد ، وابو عبد الله بن السفر وابن موهب . . . . وظفر به الملثمون فاعتقلوه ببعض معاقل ميورقة نحوا من اثنتي عشرة سنة . ثم تخلص وسار الى مراكش في قصة طويلة.

في حياة بلنسية السياسية والعلمية . فقد تقلص سلطان الملثمين الذين يمثلهم في اسبانيا أولاد غانية . ثم يظهر على مسرح السياسة للمرة الثانية في بلنسية قاض تتجه اليه الانظار ليحل محل الوالي الشرعي. وسنرى الدور الذي قام به هذا القاضي، وما آل اليه أمره ، وأمر الوالي عبد الله بن غانية .

أنفذ ابن غانية في ليلة يوم الاربعاء الثامن عشر من رمضان سنة 539 يوليه سنة1144 عياله[1] وأثقاله الى شاطبة ، وأصبح هو في الولجة[2] ثم أخذ في الفرار مع قومه . . فلما استقروا بشاطبة أغارت خيله على جهات بلنسية ، فاكتسحت ما وجدت، وسلبت وقتلت . فتظلم الناس الى القاضي مروان بن عبد العزيز ، ورغب اليه الجند والعرب ووجوه أهل البلاد في أن يصير أميراً عليهم[3] فأبى وقال : اختاروا من شيوخكم من

---

(1) في مثل هذا الاضطراب لا يخرج الوالي وحده، ولكن يخرج معه جنده ومن يواليه من العلماء والفقهاء والانصار . وهذه الحال من عوامل عدم الاستقرار وموالاة العمران. وهذه ايضا من اسباب الضعف الداخلي الذي يسهل الهجوم الخارجي . (2) ضاحية من ضواحي بلنسية .

(3) صفحة 212 من كتاب: *Notices Sur Quelques Manuscrits Arabes* نشره والفه دوزي. وهو يحتوي على جزء كبير من «الحلة السيراء» لابن الابار.

تقدموه . فاتفقوا على بعض اللمتونيين الباقين فى بلنسية بعد فرار عبد الله بن محمد بن غانية. وتمشت الحال على هذا أياماً، وأراد هذا اللمتوني المجتمع عليه أن يقبض على القاضي أبي مروان عبد الملك بن عبد العزيز ليتخلص منه فيخلو له بذلك الجو ، فلم يستطع . ثم خامره الروع فلحق بشاطبة ، كما فعل ابن غانية من قبل - هو والباقون معه من أشياعه[1] .

ولم تكن بلنسية من قبل فى حال استقرار داخلي ، أو اطمئنان سياسي خارجي . فان سقوط[2] سرقسطة فى 4 رمضان سنة 512 (19 دسمبر سنة 1118 م) فى يد المسيحيين - فى عهد عبد الملك بن أحمد بن هود عماد الدولة - حمل كثيراً من

---

(1) هذا مثل من تقلص ظل اللمتونيين فى اسبانيا عند ظهور الموحدين والواقع أن رجال الدين والعلماء كانوا قد ملوا ما كان عليه اللمتونيون من ضيق في التفكير الدينى وتعصب وكراهية للفلسفة وعلوم الدراية . على ان تقلب الامور هكذا واضطرابها وتغير الولاة لم يكن له الا اثر واحد فى الحياة العلمية هو اضعافها ، وفرار العلماء الى مكان آمن مستقر.

(2) كانت موقعة كتندة فى سنة 514 هـ (1120 م) ويقال لها قتنده بالقاف وهى من حيز دورقة من عمل سرقسطة من الثغر الاعلى ، قتل فيها من المتطوعة نحو من عشرين الفا . ولم يقتل فيها من العسكر احد (انظر نفح الطيب الجزء الثانى صفحة 580 طبعة القاهرة)

سكانها على الهجرة الى بلنسية ومرسية وغيرهما من المدن مما أحدث ارتباكا فى حياة الناس الاقتصادية والاجتماعية. وترتب على سقوطها كذلك أن نقل الفونس المحارب عاصمة ملكه اليها، وحول مسجدها الى كنيسة، وصارت بلنسية ومرسية على الحدود الاسلامية مواجهة غزو الروم المباشر فى شرق الاندلس.

وبمثل هذا الاضطراب الداخلي والخارجي، والتنافس على السيادة وقعت بلنسية فريسة للانهيار المادي والادبي. ولم تعد مقرا آمنا للعلماء، والامراء المشجعين على العلم.

ويتردد القاضي أبو مروان فى قبول أعباء الولاية، ويذكر ما جرى من قبل للقاضي جحاف ويخشى أن لا يعدل وألا يستقيم له الامر فى مرحلة كلها زعازع وعواصف سياسية، فيرفض الامارة على بلنسية. ولكن الاجماع يقم عليه، فيستخفى ويبحث عنه الناس وينفرد به أبو محمد عبد الله بن عياض قائد الثغر، وعبدالله بن مردنيس، ويلحان عليه فى القبول فيقبل، ويتم تأميره على بلنسية[1] فى يوم الاثنين الثالث من شوال سنة 539

---

(1) مقتبس من الحلة السيراء لابن الابار، كما نشر جزءا منها المستشرق=

(1145 ميلادية) .

وولى عبد الله بن عياض الثغر ، وما والاه ، وضم الى نظره ما كان بأيدي أصهاره بني مردنيس قبل ظهورهم . أما الملثمون فكانوا أثناء ذلك يغيرون على الجهات ، ويعيثون فيما يجاورهم من البسائط والمعاقل . فاستدعى الامير (القاضي) عبد الملك بن عبد العزيز رجال الثغر ونهض بهم الى منازلة شاطبة . فانحدر الملثمون من قصبتها الى المدينة ، ونهبوا الديار ، وسبوا[1] النساء . وقدم عليهم ابن عبد العزيز يوم الجمعة الثامن عشر من شوال سنة 539 ، فكانت بينه وبينهم مواقعات ظفر فيها عليهم وهزمهم .

وجاء ابن عياض بأهل الثغر معينا لاميره القاضي أبي مروان بن عبد العزيز فلم يجد عبد الله بن محمد بن غانية بداً

= دوزى في كتابه: *Notices sur Quelques Manuscrits Arabes* راجع الصفحات 214 وما بعدها .

(1) تلك كانت الحال السائدة في بلاد الاندلس أثناء القرن السادس - لاسيما نصفه الاول - ولهذا يعجب المرء كيف يمكن مع هذا تقدم العلم او صيانة البلاد من الغزو الخارجي

من الفرار الى المرية ومنها ركب البحر الى أبيه محمد بن على أمير ميورقه من قبل اخيه ابي زكريا يحيى بن علي بن غانية .

ولما هرب عبدالله بن محمد بن غانية من قصبة شاطبة استولى عليها ابو مروان بن عبد العزيز صلحا ، وحصنها ، وعين لها ضابطا ثم عاد الى بلنسية . ويقال انه دخلها راكبا على جمل فى زى الجند ، وجددت له البيعة يوم قدومه وذلك فى صفر سنة 540 وبهذا تخلص الامير القاضي من منافسة الملتونيين له فى ولاية بلنسية وغيرها [1] كشاطبة

وكان المنتظر أن تستقر له الامور ، وان ينصرف الى اصلاح شئون الرعية . ولكن هيهات له ذلك ! فالجند المنتصر يريد أجرة . والقاضي يطلب الجباية . والجباية لاتفى بما يطلبه الجند . والنتيجة أن الجند يثور ، متعللا بقلة الاجر ويخاطب ابن عياض فى ذلك.

---

(1) كان أبو جعفر محمد بن عبد الله بن أبي جعفر والى مرسية منافسا للامير القاضي على شاطبة ولكنه هزم ، وأخيرا قتل بجهة غرناطة . وبذلك اضيفت مرسية . ولقنت ، وأعمال شاطبة الى الامير القاضي ابن عبد العزيز. فعين ابن عياض من قبله واليا على مرسية .

علم الامير القاضي بما يحيط به من مؤامرات ، وكان لابد له من مواجهة هذه المؤامرات أو الهرب. وقد تمكن من الامر الثانى ، فخرج راجلا متنكرا ، وتدلى من سور بلنسية ليلا، واعتسف الطريق دون دليل حتى لحق بجبال المرية .

أعلن الجند خلع الامير القاضي ابن عبد العزيز، وقدموا أبا محمد عبد الله بن سعد بن مردنيش نائبا عن ابن[1] عياض ووالیا على بلنسية .وأسكنوه قصر الامارة . ثم قدم عبد الله بن[2] عياض من مرسية فى آخر جمادى الاولى سنة 540 هـ . (سنة

---

(1) كان عبد الله بن عياض قد استدعى للاستيلاء على مرسية بدلا من عبد الرحمن بن طاهر الذى استولى عليها عند فرار ابى جعفر محمد بن عبد الله. فاستولى عليها، وعند ما خلع الجند الامير القاضى مروان بن عبد العزيز فى بلنسية . استدعوا ابن عياض وأمروه عليها فى آخر جمادى الاولى سنة 540. وبذلك صار أميرا على جميع شرق الاندلس، داعيا اولا لابن هود ثم لنفسه بعد ذلك، الى ان قتل بسهم فى بعض حروبه مع الروم يوم الجمعة 22 ربيع الاول سنة 542. وبذلك كانت ولايته سنة وتسعة اشهر وعشرين يوما ، وحمل الى بلنسية فدفن بها (انظر مخطوط الحلة السيراء لابن الابار وقد طبع دوزى جزءا منه فى كتابه : *Notices sur Quelques Manus-crits Arabes*

(2) كان عبد الله بن عياض والد زوجة أبى محمد بن مردنيش.

1145 م) الى بلنسية ، وقد وافته بيعة أهلها فى الطريق . فأقام بها ناظراً فى أمورها، ومصلحا ثغورها. وعاد بعد ذلك الى مرسية ، تاركا وراءه صهره ابامحمدعبد الله بن سعد بن مردنيش أميرا على بلنسية من قبله . وكان أبو محمد هذا عم أبي عبد الله محمد بن احمد بن سعد بن مردنيش الذى صار بعد ذلك أميرا لشرق الاندلس بعدابن عياض . وقد ظل ابو محمد عبد الله بن مردنيش يدافع عن بلنسية الى أن استشهد سنة 540هـ. فى بعض أيامه مع الروم ، فبويع [1] لابن أخيه محمد بن احمد المذكور .

أما القاضي ابو مروان بن عبد العزيز فقد اعتقل فى الطريق ، وصارت نهايته الى السجن .

استمر ابو محمدعبد الله بن سعد بن مردنيش حاكما على بلنسية الى أن قتل عبد الله بن عياض فى ربيع الاول سنة 542 فى بعض حروبه مع الروم كما ذكرنا . فانتقلت امارة شرق الاندلس الى والى بلنسية أبى عبد الله محمد [2] بن سعد بن مردنيش . فعين

---

(1) الهامش رقم 1 من صفحة 66 من الجزء الرابع من نفح الطيب (مطبوعات دار المأمون) (2) اختلف المؤرخون في اصل ابن مردنيش =

هذا اخاه ابا الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش واليا على بلنسية . وانصرف هو لحروبه ضد الموحدين، وحماية املاكه في الشرق.

وقد ظل ابو الحجاج يوسف بن مردنيش واليا الى أن تغلب الموحدون على شرق الاندلس ، وأذعن بنو مردنيش بعد موت أبيهم الموحدين، فأبقوا الحجاج واليا من قبلهم على[1] بلنسية .

ولما كانت بلنسية قد صارت الى الموحدين بتغلبهم على الاندلس ناسب أن نذكر شيئا عنهم ، ونربط ظهورهم في المغرب والاندلس بتاريخ بلنسية .

= هذا، فيذهب مؤرخوالافرندة الى ان مردنيش كلمة اسبانية الاصل وهي *Martinus* او *Martinez* ومعناها ابن مارتن. فهو لهذا ينتمي الى اصل اسباني. ويرى مؤرخو العرب انه عربي جذامي . وقد ولد في بنشكلة *Peñiscola* سنة 518ه (4-1125) بين ترطوزة وكاستيلون، ومات في 29 رجب سنة 567 (27 مارس سنة1172) وقد تمكن ابن مردنيش هذا - عقب انتهاء سلطان المرابطين في اسبانيا - من أن يصير ملكا على شرق الاندلس. واصطدم مع الموحدين في عدة وقائع. (راجع تاريخه في دائرة المعارف الاسلامية ، وابن خلدون وصفحة298من اعمال الاعلام.)

(1) صفحة 312 من كتاب «اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام» للسان الدين بن الخطيب .